

الدين في الفلسفة، قراءة في الرؤية الهيجلية

أ. شريف الدين بن دوبه
قسم الفلسفة . كلية العلوم
الاجتماعية والإنسانية .
جامعة سعيدة . الجزائر

توطئة :

من الأوليات المؤلفة للبنية التركيبية لجِلَّة الإنسان بعدَ القابليات الذهنية، والنزوع الأخلاقي الحاجةُ إلى الدين، فهي استعداد طبيعي في بنية الذات الإنسانية، وحشية ماهوية غير عرضية كحال الجسد، فالجسد كتعيّن ليس إلا أداة وآلة تحقق بها الذات مطالبها وغاياتها الفردية والمتعالية، ومن النصوص المرسلة في العقيدة الإسلامية وحدة الفطرة التي جبل عليها الإنسان .. "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" كما وردت الفطرة كثيرا في القرآن الكريم في عدّة صيغ منها: "قال بل رُبُّكم ربُّ السموات والأرض الذي فطرهنَّ" (1) .. "إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض" (2)، ولم رد في صيغة الفطرة أي بوزن فعلة إلا في آية واحدة وهي: "فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله" (3) .

وفي اللغة العربية: "تدلّ صيغة فعلة على المصدر الدال على هيئة الفعل ونوعه، فإذا قلنا جلسة فهذه تعني الجلوس مرة واحدة ولكن إذا قلنا جلسة فإنها تعني هيئة الجلوس .. وعليه فكلمة فطرة تعني تلك الهيئة التي خلق بها الإنسان" (4)، ومن بين مضامين الفطرة الحاجة إلى الدين الذي هو الطاعة والجزاء في اللغة، وقد جاء هذان المعنيان في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: "مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ" أي يوم الجزاء، وكذلك جاءت لفظة الدين متضمنة لمعنى الطاعة والانقياد، كما في قوله تعالى في حكاية يوسف وأخيه: "كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ" أي في طاعة الملك وشريعته.

وفي الاصطلاح هو جملة الشرائع التي جاء بها الأنبياء والمرسلين، والديانات التوحيدية الكبرى هي اليهودية والمسيحية والإسلام، والبحث النظري في العقائد من حيث الحجاج والاحتجاج هو أصل الخلاف بين بني البشر، ولم تكن يوما الحاجة إلى الدين مسألة خلافية بين بني البشر، إذ لم يكن الاختلاف حول الأهمية التي تحتلها الديانات إلا مسألة ثانوية، وطبيعة العقيدة المسيحية وإشكالاتها العقدية طرحت الكثير من المصاعب أمام الفلاسفة الذين ينتمون إلى

هذه العقيدة، وعلى الأخص الإشكالات المنطقية، مثل مسألة الألوهية بين الوحدة وبين التثليث وعليه فإن علماء الكلام أو علماء اللاهوت في المسيحية قد انبروا للدفاع عن عقيدتهم بالحجاج العقلية.

فريدريك هيغل "1831/1770" :

أعظم الفلاسفة التي عرفتهم البشرية، لدرجة اعتبره البعض الفلسفة ذاتها بلحمها ودمها، فهو المفكر الوحيد الذي استطاع بعد أرسطو أن يسيطر على العالم بعقله، بنفس القدر الذي حاول فيه الاسكندر و نابليون الاستيلاء على العالم بقوته العسكرية، وقد اختلف الفلاسفة والنقاد حول الأصالة الفلسفية في النسق الهيجلي، فاعتبره البعض الفيلسوف الذي جرؤ على وضع الفلسفة فوق مستوى الدين كما قال عنه الفيلسوف الدانمركي "سورين كيركيغارد Soren Kierkegaard" 1855/1813، أما البعض الآخر فلم يجد في فلسفته أكثر من مجرد عالم لاهوتي، ومذهبه الفلسفي ليس إلا صورة مقنّعة من صور الفلسفة المسيحية، فهو آخر عبقرية . كما بصفه كروتشه . ظهرت في تاريخ الفلسفة، عبقرية ضارعت عبقریات أفلاطون، وأرسطو، وديكارت، وفيكو، وكانت .. ولم تظهر بعده سوى مواهب صغرى، كان أصحابها مجرد أتباع ولم يكن لهم كبير شأن.

تشكّل الموضوعية المطلب الرئيس في البحث الفلسفي، ولتحقيق هذا الغرض ينبغي التسليم بالمبدأ التالي الذي يتّص على أن أصالة الموقف فلسفي لا تلغي المرجعية التاريخية التي يستند ويتأسس عليها، والملاحم العامة للنظرية الهيجلية في فلسفة الدين لا تخرج عن محاولة التنظير أو التبرير للمعتقد المسيحي الذي كان يشكّل المحيط الثقافي للفيلسوف، فمسار العقيدة المسيحية تعرّض في محيطه التاريخي لعدّة أزومات، حيث كانت المسيحية في البداية ديانة توحيد تدعو إلى عبادة إله واحد، وتقرر أن المسيح إنسان من البشر أرسله الله تعالى بدين جديد وشرعة جديدة كما أرسل رسلاً من قبله.. وأمه صديقة من البشر قد كرمها الله فنفع فيها من روحه فحملت بالمسيح، ولكن لم تمض بضع سنين على رفع المسيح حتى أخذت مظاهر الشرك والزيغ والانحراف تتسرب إلى معتقدات بعض الفرق المسيحية، وافدة إليها أحياناً من فلسفات قديمة، وأحياناً من روايب ديانات ومعتقدات كانت سائدة، فانقسم حينئذ المسيحيون إلى طائفتين طائفة جنحت عقائدها إلى الشرك بالله، وطائفة ظلت عقائدها محافظة على التوحيد⁽⁵⁾.

قبل البحث في فلسفة الدين عند هيغل ينبغي الإشارة إلى المدرسة العقيدية التي كان يترعرع فيها الفيلسوف، على قاعة التعدد الذي عرفته الكنيسة المسيحية، وهي الكنيسة البروتستانتية التي ظهرت في أوائل القرن السادس عشر، وهي نحلة الاحتجاج أو الاعتراض، وأطلق على معتنقيها اسم "البروتستانت" أي المحتجين أو المعارضين. وقد دعا إلى ظهور هذه النحلة أمور كثيرة يرجع أهمها إلى مظاهر الفساد التي بدت في كثير من شئون الكنيسة الكاثوليكية ومناهجها وطقوسها، وما أحدثته من بدع، ومسلك قسيسيهما والقوامين عليها، وإلى تحكمها في تفسير كل شيء، ومحاولة فرض آرائها على جميع أتباعها حتى الآراء التي لا علاقة لها بالدين، كالآراء المتعلقة بظواهر الفلك والطبيعة.

ذلك هو المحيط الثوري الذي استمد منه الفيلسوف هيغل نزعتة النقدية في التعامل مع الدين كجوهر، ومع الكنيسة كتجسد وتعين للعبادة. وهذا ما يظهر في النص التالي: "...من السطحية والבלادة أن نرى في الدين بدعة خادعة، وغالبًا ما أسيء استعمال الدين، وهذا إمكان حصيلة الشرط الخارجي والوجود الزمني للدين، ولكن بما أنه دين من المحتمل جدا أن يتراخى هنا وهناك ويجري وراء الانقياد الخارجي، ولكن الدين هو الذي يقف بثبات في وجه الأهداف المحدودة وتعقيدها مشكلاً المنطقة التي ترتفع فوقها، وهي منطقة الروح التي هي محراب الحقيقة بالذات.. (6)""

الجدل الهيجلي أسلوب كلامي جديد استعمله هيغل في الدفاع عن مسائل الكنيسة المسيحية البروتستانتية فدراسته للاهوت بمعهد توبنجن لمدة خمسة أعوام، وتميّزه كطالب في كلية البروتستانتية، أهله لمرتبة المتكلم والمدافع عن العقيدة المسيحية، كما كانت تلك الفترة بمثابة اللحظات الثورية في المسار الفكري للفيلسوف إذ وقع فيها تحت تأثير جان جاك روسو "Jean Jack Rousseau" إيمانويل كانت "Kant" وفيخته "Fichte"، والدليل على ذلك اهتمامه بدراسة ومناقشة كتاب "الدين في حدود العقل" وكتاب "نقد الوحي" والاطلاع على فلسفة مندلسون الذي انصبّ اهتمامه على دراسة الديانة اليهودية، فتعدد المراجع الفكرية والمشارب الدينية في ثقافة الفيلسوف يعيق الإحاطة بالمفهوم والتصور عنده، وقبل البدء في البعد الكلامي في فلسفة الدين الهيجلية ينبغي منا الإشارة إلى مفهومه المبدئي للدين.

الدين والفن والفلسفة مفاهيم تتداخل، وتتخارج مع بعضها البعض في لحظات الوعي تارة، وفي حقب التاريخ تارة أخرى، كما أن غموض النصوص

الفلسفية وتعدد الأبعاد التي استبطنتها، والخصوصية التي أضفاها هيغل على المصطلحات الفلسفية التي شكلت نسقه الفلسفي، لأن اللغة هي المفتاح الرئيس نحو سبر المواقف، والاصطلاحات الهيجلية تتميز بدلالات دقيقة، وفهم مصطلح على ضوء فلسفة أخرى يؤدي حتما إلى الانحراف في فهم الفكرة، فتميزه بين العقل والروح وبين الفهم وبين الذهن من الأوليات.

وعليه نجد اختلاف الفلاسفة في تفسير وتأويل النظرة الهيجلية له ما يبرزه، أما الدلالة العامة التي تعبر عن التصور الهيجلي للدين هي اعتباره حالة للوعي في حركته الواعية، والمتجهة نحو معرفة اللامتناهي، يقول هيغل: الدين هو "الوعي الذاتي بالروح المطلق، على نحو ما يتصوره أو يتمثله الروح المتناهي" (7) ..

فهو معرفة أو وعي الكائن المتناهي أو الإنسان، وإن كان ما صدق الكائنات المتناهية لا يحصر ضمنه فقط الكائن البشري، فهو إدراك شخصي للذات الإنسانية على ضوء تجاربها الشخصية ومعتقداته الفكرية للروح المطلق أو الكائن الغير متناهي، فالدين إذن هو تلك النظرة أو الرؤية الإنسانية للعلّة المصدرة الكون، والتخارج الموجودة بين الله والإنسان يدفع هذا الأخير إلى البحث عن صيغ وصور التداخل أو البحث عن الاكتمال والسعادة في الكائن المطلق، فالدين كما جاء في كتب هيغل قراءات في فلسفة الدين هو: "الروح واعيا بجوهره، هو ارتفاع الروح من المتناهي إلى اللامتناهي" (8)

فالدين إذن هو العلاقة التي تجمع بين الوعي الذاتي بالله أو بالروح المطلق أو الكلي، فالله كما يقول هيغل: "لا يكون هو الله إلا بمقدار ما يعي ذاته بذاته، وفضلا عن هذا فإن معرفته بذاته هي وعيه بها بواسطة الإنسان، ومعرفة الإنسان بالله تتحقق في معرفته بنفسه في الله" (9)

الدين عد هيغل هو علاقة معرفية ووجدانية تجمع بين الخالق والمخلوق، وهي علاقة لا يمكن إلغاؤها واحتقارها أو التقليل من شأنها، مهما كانت الأشكال التعبيرية عن هذه العلاقة والتي عرفتها البشرية في تاريخها ساذجة، فالفصل . كما يقول ولتر ستيس . بين العقل الكلي، وهو الله، وبين العقل الجزئي وهو الإنسان قائم بالفعل ويشعر به الوعي وهدف جميع الديانات هو بالضبط عبور هوة الانفصال هذه، أو التوفيق والمصالحة بين الله والإنسان. (10)

والتسليم بالبعد الانطولوجي لله، يجعل من الكائن الإنساني وجودا مفتقرا ويعيش حالة الاحتياج إلى الله الواحد والقادر على تلبية الحاجيات الفطرية، والنفسية للوجود الإنساني، وإذا كان الدين هو الوعي الذاتي بالمطلق، والقانون

الثابت في ماهية الوعي هو الصيرورة الجدلية، أو الحركة التي تجدد في نقائضها الذاتية أو الموضوعية مادة لتغيرها، يكون الناتج اللازم عن هذه المقدمات هو تطور الدين ذاتيا وموضوعيا، يقول هيغل: "من المؤكد ان الشعوب وضعت في الديانات طريقة تمثلها جوهر العالم، مادة الطبيعة والروح وعلاقة الإنسان بهذا الموضوع، هنا يكون الوجود المطلق موضوعا لوعي الشعوب، وإذا درسنا على نحو أدق هذه الموضوعية، يكون هذا الموضوع في نظرها هو الآخر، الماوراء البعيد، الخيّر أو المرعب والمعادي ففي الصلاة والعبادة يستبعد الإنسان هذا التعارض ويرتفع إلى وعي الوحدة مع جوهره، إلى الإحساس بالنعمة الإلهية وثقته فيها." (11)

ولذا يعتقد هيغل أن المسار الديني للوعي مرّ بثلاث مراحل هي الديانة الطبيعية، ديانة الفردية الروحية، الديانة المطلقة أو المسيحية .. والديانة الطبيعية وهي الديانة التي تنضوي تحتها " جميع تلك الديانات التي لم تستطع فيها الروح السيطرة بعد على الطبيعة، ولم يعترف بعد بالروح على أنها الكائن الأسمى والمطلق .وحيثما يدرك الله أو المطلق على انه شيء أقلّ من الروح كالجوهر مثلا، أو القوة، فإن المبدأ الروحي في جميع الحالات بصفة عامة لا يعترف بأنه الخالق أو الحاكم أو المسيطر على الطبيعة ..ومثل هذه الديانات تنظر إلى الروح البشري على انه لا يزال داخل سيطرة الطبيعة.. (12)

وهذا النموذج الأولي البدئي . إذا جاز التعبير بدلا عن البدائي التي اقترنت بصورة التخلف الفكري في الانتروبولوجيا الغربية . يكشف عن المستوى الأدنى في إدراك الوعي لذاته، فالشعور بالعجز أو النقص دفعه إلى اعتبار المطلق كائن سالب لحرية وإرادة الكائن البشري المتناهي، وعلى حدّ تعبير زكريا إبراهيم: "الروح الذي لا يبلغ درجة الوعي التام بذاته، أو الذي لا يرى في الوجود الفعلي صنيعته الخاصة، لا بد من أن ينظر إلى نفسه باعتباره واقعة غريبة، وكأنما هو مجرد تمثّل أو تصوير حسي وابتسط صورة هي التي تتخذ طابع المباشرة الطبيعية، حيث نرى الإنسان ينشد صورة مكافئة لروحه في عالم الطبيعة، وبذلك يعتمد إلى تأليه بعض الموضوعات الطبيعية. (13)

ومن أهم الصور التي تعبّر عن هذه اللحظة الدينية الصور السحرية والتي يعبر عنها بالديانة المباشرة أو إذا جازت الترجمة الآنية **Immediat Religion ,or Magic** التي تعكس سذاجة الوعي الإنساني وأوليته، فهو في هذه المرحلة عاجز عن إدراك الكلي الله، لأنه لم يدرك بعد العلاقة الثابتة بينه وبين الخالق أو العقل

الكلّي، بل هو جزء من عالم الأشياء الموجودة في هذا الكون، يقول هيجل الديانة الطبيعية هي اللحظة التي يكون فيها " الروح العالم بالروح إنما هو الوعي بنفسه، ويكون لنفسه على صورة الموضوعي أي انه يكون وهو في ذات الحين الكون . لذاته انه يكون لذاته، وهو وجه الوعي بالذات، ويكون لا محالة بإزاء جانب وعيه او جانب الارتباط بالذات من جهة ما هي موضوع." (14)

والصورة الثانية للتمظهر الديني هي ديانة الجوهرية، أي الديانة التي يمنح فيها الإنسان الله السمة الجوهرانية، والتعالّي عن العرضية، فهو جوهر خالص وصرف، أما الإنسان فهو الكائن المتناهي الذي يتلعه العدم أمام كلية المطلق، فالإنسان في هذه النماذج فاقد للحرية، وبالتالي يكون عاجزا عن أداء نشاطات أخلاقية على قاعدة انه عدم أمام المطلق الذي هو الله ..

ويقدم لنا هيجل نماذج تعبر عن هذه اللحظة التطورية التي عايشها الوعي الذاتي وهي الديانة الصينية، الهندوسية، البوذية؛ ومضمون الديانة الصينية يظهر في الاعتقاد بأن الدين هو في طاعة الإمبراطور، فهو الإله أو ظل الله في الأرض، وصاحب السلطة المطلقة في الأرض، أما الهندوسية فقد تضمنت حسب البعض من المفكرين جذور التثليث المسيحي وهي كلمة **Trimurti** والتي تعني الثالوث الهندوسي المقدس والذي هو براهما وهو يقابل الكلّي، وفيشنو يقابل الجزئي وشيفا **Siva** اللحظة الفردية فالله في الهندوسية جوهر غير متعين مجرد من المضمون .. أما البوذية فهي في اعتقاده لحظة النهاية لديانة الجوهر.

أما المراحل التالية فقد عرفت تطورا فكريا للاعتقاد الديني حيث أصبح الله يملك بعضا من التحديدات مثل وصفه بصفة الخير، وهذا ما وجده هيجل في الديانة الزرادشتية "أهورا مازدا . اهريمان " والديانة السورية "ادونيس . العنقاء " والديانة المصرية "إيزيس . اوزيريس .."

واللحظات الكبرى التي عرفت فيها الديانات بعضا من الاكتمال أو بالأحرى بلوغ الكمال مع الديانة المسيحية، فالديانة اليهودية أو دين الجلال هوى إحدى مظاهر الديانة الفردية الروحية، والسبب هو تحديدها الأساسي لله بأنه شخص (15)، ونلاحظ إن الانتقاء الهيجلي لحركة وتطور الديانات ينم عن رغبته في التأسيس النظري والمنطقي لصحة العقيدة المسيحية، والدفاع عنها، فالانفصال الذي عايشته المسيحية مع الفلسفة دفع الفيلسوف الى البحث عن تنظير فلسفي لها، إذ يقول في: "إذا كانت الديانة المسيحية والفلسفة تعتبران في العالم المسيحي منفصلتين، فإن الأمر خلاف ذلك في التاريخ الشرقي القديم حيث اعتبرت

الديانة والفلسفة لا تقبلان الفصل بينهما حتى وإن كان المضمون يرتدي فيهما شكل الفلسفة⁽¹⁶⁾.

E. كما ينبغي الإشارة إلى الكتاب الذي أصدره إيمانويل كانت **Kant** "1724-1804" في نقد وتمحيص المعتقد المسيحي "الدين في حدود العقل" وهو الذي أحدث ضجة كبرى في ألمانيا حتى اضطر "كانت" إلى الاعتذار للسلطات الرسمية والتعهد للملك "فريدريك ويليم" بعدم العودة إلى الكتابة في مسائل الدين.⁽¹⁷⁾، إذ وجدت العقيدة المسيحية نفسها في عصر التنوير في موقف حرج أمام خصومها، وتميز هذا العصر بسيادة العقل وتعاليه فوق العقائد، إذ كان كل فرد يفسيّر الدين كما يحلو له حتى أن العقيدة المسيحية قد استبدلت بعقيدة العقل، وأن الدين لم يبق سوى دين طبيعي⁽¹⁸⁾.

والأطروحة التي قدّمها إيمانويل في كتابه: الدين في حدود العقل تبدأ ببيان الأسس التي تقوم عليها العقيدة المسيحية والتي تمثل قوام ومرجعية كل دين وهي اعتبار الله كمبدأ وغاية لكل واجباتنا، فهو المشرّع الواجب احترامه، والحكم بالأخلاقية على الأفعال يرجع إلى تحقيق معيار المطابقة القائمة بين الفعل والغايات التي شرعها الله للبشر، فالفعل الخلقي من وجهة النظر الدينية هو الفعل الذي يرضي الله والذي نستطيع بفضلله أن ندخل إلى ملكوت الله وعلى هذا الأساس كان ديناً طبيعياً قوامه الإرادة الثابتة الساعية لأداء الواجب من أجل الواجب، و"تكمن الصعوبة في تلاقي الدين الطبيعي بالدين التاريخي أو الوضعي كدين الكنائس البروتستانتية فمسلّمة خلود النفس، والله المحب للعدل مبينة جداً لعقيدة الله المنتقم في البروتستانتية⁽¹⁹⁾، لأن تكوين مجتمع أخلاقي يرتضيه الله يقوم على الأسس التي يرتضيها الله ذاته، وليس من طرف البشر..⁽²⁰⁾

فالأخلاق في الأطروحة الكانطية هي التي تؤدي إلى الدين وليس العكس، فمرجعية الدين تاريخية ووضعية، قد تؤدي بالضرورة إلى إضفاء الصيغ الشرعية لبعض الممارسات التي لا يقتضيها ولا يرضى بها العقل الخالص، فالدين الذي تؤدي إليه الأخلاق الكانطية ليس هو دين الوحي، وإنما دين العقل المحض الذي لا يلجا مطلقاً إلى دوافع خارجية أجنبية عنه مثل الخوف والرغبة الذين تتأسس عليهما أخلاقية أديان الوحي.

يمكن القول أن الأطروحة الكانطية المتضمنة في كتاب الدين في حدود العقل من أهم العوامل التي دفعت الفيلسوف هيجل لكتابة أهم إنتاجاته الفلسفية في مجال اللاهوت والتي هي "دين الشعب"، "نقد المسيحية الوضعية"، "حياة يسوع"،

"قراءات في فلسفة الدين" "فيومينولوجيا الروح"، وقد هاجم هيغل النزعة العقلية الصورية التي أغفلت البعد الذاتي والعاطفي في الذات الإنسانية، فالإنسان ليس كائنا عاقلا صرفا، وقد تضمّنت هذه الانتاجات الفكرية فلسفته حول الدين.

وهي تقوم على مسلمات رئيسة: أولها العقيدة المسيحية هي الحقيقة، وهي الديانة المطلقة، ومضمونها هو الحق المطلق، فمضمونها يتحد مع الفلسفة الهيجلية، والمذهب الهيجلي هو الديانة المسيحية القاصرة على فئة قليلة ورغم أن المضمون واحد فإن الصورة مختلفة، فالفلسفة تعرض المضمون المطلق في صورة مطلقة، وهي صورة الفكر الخالص أما المسيحية فهي تعرض المضمون نفسه في صورة حسية أو في فكر حسي أعني على هيئة تمثل (21).

أما المسلمة الثانية التي تقوم عليها فلسفته في الدين، فهي التسليم بموضوعية العوامل التي ساهمت في انحراف العقيدة المسيحية، فالحركة الجدلية للوعي الديني، والمحيط الثقافي عموما، واليهودي خصوصا هو العامل الرئيس في أزمات المسيحية، ونجده في كتابه "حياة يسوع" هذه الحقيقة، فيقول: "يظهر الصراع بين الدين الخالص، الذي هو مذهب يسوع، وبين الدين الوضعي المتحجر في شكلية صارمة، دين خارجي تماما هو الدين اليهودي

وأكد السيادة الخلقية للشخص بالنسبة إلى كل ناموس يريد أن يفرض نفسه عليه من الخارج. فكان المسيح الهيجلي صورة وردة فعل لروح تلك البيئة، وتمردا من الطبيعة البشرية الحرة، أي في جوهرها ضد الشكلية الصارمة للثيوقراطية اليهودية (22)

فقد كان المسيح الحقيقي شخصية ثورية عملت على الارتقاء بالإنسان من مستوى السائم إلى مستوى الكائن الأسمى أو بلغة سارتر من الوجود في ذاته إلى الوجود لذاته، أو بالمصطلح الهيجلي من وعي العبد إلى الوعي بالذات الذي هو وعي السيد فقد: "كان المسيح أول من ثار ضد المجتمع في عصره، وذلك من أجل تحرير الإنسان، والتبشير بعقيدة ذاتية تقوم على الحكمة والحرية (23).

أما المسلمة الثالثة في فلسفة الدين الهيجلية فتتعلق بمسألة الثالوث الذي يعتبر من أهم المسائل الكلامية في العقيدة المسيحية، إذ عرف الداخل المسيحي تصدّعات وانقسامات تجاوزت السبعين بناء على النص النبوي القائل: "" افتترقت اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وافتترقت النصارى إلى اثنان وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة "

وقد كان الثالوث حقلا للاختلاف، فالكنيسة الأرثوذكسية تعتقد أن ""
للمسيح طبيعتين، إلهية وإنسانية، متحدتين في شخص واحد، شخص ابن الله
المتجسد، وهذا الاتحاد قائم بدون انقسام أو انفصال أو تحول أو اختلال أو
اختلاط .. فهو اله تام وإنسان تام .."(24)

أما الكنيسة النسطورية فقد اعتقدت أن المسيح سلام الله عليه أقنومين أو
شخصين أحدهما الهي والثاني إنساني وهما غير ملازمين بالضرورة أحدهما للآخر،
أما موقف " أفنيشي " أو " اوطيخا " فيقرر بأن الطبيعة الإلهية في المسيح قد ابتلعت
الطبيعة الإنسانية فهو طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية التي ذابت فيها الطبيعة
الإنسانية وقد سميت ببدعة الطبيعة الواحدة، ثم طرح فكرة شخص واحد
بمشيئتين .. وكثيرة هي الاتجاهات والمذاهب في مسألة التثليث، وقد اختلف علماء
اللاهوت المسيحية في تأويل وتفسير رؤية هيغل للألوهية، فإحصاء التوماوي فرانز
غريغوار المعاني السبعة المتعددة التي تضمنتها فلسفة هيغل حول الموضوع.

تؤكد الدلالات المتعددة التي أخذتها التفسيرات، فإنه هيغل لا يمكن أن
يكون اله مذهب التأليه المسيحي حسب البعض خصوصا عندما أعلن أن
النهائي هو لحظة رئيسية في حياة اللاهائي، وأن الله لا يكون الله بدون العالم(25).

كما أراد فريدريك هيغل أن يوفق العلم والإيمان الذي كان إيمانويل كانت قبل
ذلك يفصل بينهما، حيث وجد هيغل في عقيدة التثليث حسب البعض من
المفكرين: "اللحظات الثلاث التي يميز بينهما في علم المنطق: الكلي، الجزئي،
الافرادي، فالله هو الأب وهو الكلي، أي الفكر المحض ونشاطه العلم، والكلي
الإلهي يتخذ بنفسه صفة الجزئية وصفة التفارق ويصير من فكرة واحدة أفكارا
متعددة، انه الإله الابن المنبثق من الأب انبثاقا سرمديا، وأخيرا يعود الله إلى ذاته،
ويتعرف إلى موضوعه من حيث مطابقته لذاته، فيبطل التفارق عن طريق المحبة
عند ذاك يكون الله روحا مطلقة أو شخصية مطلقة"(26).

إن الثلاثية التي حايت النسق الهيجلي تؤكد المحاولات المتعددة التي قام بها
الفيلسوف في الدفاع على عقيدة التثليث، فمذهبه كما يقول الأستاذ عبد الرحمن
بدوي يتألف من ثلاثة معان رئيسية هي الفكرة، الطبيعة، الروح ..(27) "، وهي
المفاهيم المفتاحية لنسق هيغل.

وقد أقام الفيلسوف حركة الفكرة أيضا على قاعدة ثلاثية وهي تتألف من
الوضع "thèse" الذي يمثل الصورة الأولية للوجود، وهي المرحلة التي يكتشف
فيها الوعي محدوديته، وعجزه، فيشعر بالاستلاب أو حالة السلب التي يصطلح

عليها بالنفي أو "anti thèse"، فالموجود الخالص كما يقول شبتولين مماثلاً للعدم عند هيغل، فهو ليس جامداً، لا يوجد ازلياً في نفس الحالة، بل هو يتحول بفعله مع العدم، الى صيرورة .. (28) "

فالوجود الإنساني يدرك حالة السلب عند إدراكه للعظمة، والمسيح سلام الله عليه من تجليات هذه العظمة، أما لحظة المركب "synthèse" وهي آخر مرحلة من المراحل التي يتشكل فيها الوعي، عندما يدرك وجود المطلق بذاته، والمسيح النموذج الفريد الذي حقق هذا التشكل، والروح المطلق لم يجد أفضل من المسيح للتعين في النهائي، وهذا التنظير ليس إلا محاولة من هيغل في تفسير النص الإنجيلي: "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله .. والكلمة صار جسداً وحل بيننا، ورأينا مجده كما لوحيده من الآب مملوءاً نعمة وحقاً (29)" وخلاصة القول أن الدين في نظر هيغل لا يتأسس على العقل وحده، بل هو شعور ووعي بالذات الفردية وبالروح الموضوعي والمطلق، وهذا لا يعني أن الدين حالة شخصية ومسألة فردية لا تمت بصلة مع الواقع الموضوعي، فالمطلق الذي هو الله يكون مبدءاً للحركة ونهايتها، وعليه فالوظيفة الحقيقية من الدين هي تحريك الإرادة، والحث على العمل، أما مهمة المؤمنين في نظره فهي العمل على توسيع الدين بحيث يشمل الحياة بأسرها، وبذلك يصل المؤمن إلى إدراك اللامتناهي في عالم المتناهيات، فالدين هو الحياة، والحياة هي الدين.

الهوامش

- 1-سورة الأنبياء، الآية 56
- 2-سورة الأنعام الآية 79
- 3-سورة الروم الآية 30
- 4-مرتضى المطهري، الفطرة، ترجمة جعفر صادق الخليلي، مؤسسة البعثة، بيروت، ط2 - 1992 ص: 11
- 5-علي عبد الواحد وافي، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، دار نخضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى 1964 ص: 97
- 6-هيغل، محاضرات في تاريخ الفلسفة، ترجمة خليل احمد خليل، المؤسسة العربية - للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ط: 1/ - 1986 ص: 46
- هيغل ، فينومينولوجيا الفكر
- 7-محمد عثمان الخشت، مدخل إلى فلسفة الدين، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة. 2001 ص: 18
- 8-المرجع نفسه ص: 19

- 9-ولتر ستيس، فلسفة الروح، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثالثة 2005 ص: 179
- 10-هيجل، محاضرات في تاريخ الفلسفة المرجع السابق، ص: 45
- 11-المرجع نفسه، ص: 179
- 12- زكريا إبراهيم، هيجل، مكتبة مصر، القاهرة 1970 ص 412 "د.ط"
- 13-هيجل، فينومينولوجيا الروح، ترجمة ناجي العونلي، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى 2006 ص: 672
- 14-ولتر ستيس، فلسفة الروح، المرجع السابق ص: 192
- 15-هيجل، محاضرات في تاريخ الفلسفة، المرجع السابق، ص: 48
- 16-إمام عبد الفتاح إمام، دراسات هيجلية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة 1984 ص: 283 "د.ط"
- 17-يوسف حامد الشين، مبادئ فلسفة هيغل، منشورات جامعة قان يون، بنغازي الطبعة الأولى 1994 ص: 21
- 18-إميل برييه، تاريخ الفلسفة، ج 6 ترجمة جورج طرايشي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية 1993 ص 292
- 19-Kant la religion dans les limites de la raison .traduction A. Tremesaygues .librairie Félix alcain, paris 1913.p117
- 20-إمام عبد الفتاح إمام، المكتبة الهيجلية، المجلد الثاني، مكتبة مدبولي، القاهرة 1996 ص: 681
- 21-هيجل، حياة يسوع، ترجمة جرجي يعقوب، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ص: 35
- 22-يوسف حامد الشين، المرجع السابق، ص 81
- 23-علي زيعور، اوغسطينوس، دار اقرأ بيروت 1983 ط/1 ص 22
- 24-رينيه سرو، هيغل والهيجلية، ترجمة ادونيس العكر، دار الطليعة بيروت، الطبعة الأولى 1993 ص: 50
- 25-المرجع نفسه، 47
- 26-عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج: 2 المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت الطبعة الأولى 1984 ص 580
- 27-أ. شبتولين، مقولات الجدلية وقوانينها، ترجمة فؤاد أيوب، دار دمشق بيروت الطبعة الأولى 1986 ص: 25
- 28-إنجيل يوحنا، العهد الجديد جمعيات الكتاب المقدس بيروت 1964 ص: 145